

## ظاهرة التبادل بين المفرد والمثنى والجمع

دفع الله عبدالله سليمان

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية  
السعودية

ملخص البحث . إذا نظرنا إلى اللغات غير العربية، فإننا نلاحظ أنها تتميز بين المفرد والجمع، وتتخذ لذلك أشكالاً مختلفة؛ أما العربية فنجدها تتخذ لهذه الفكرة ثلاث صيغ، واحدة للمفرد وأخرى للمثنى وثالثة للجمع .

وعند النظر في شواهد العربية نجد تبادلاً بين المفرد والمثنى من جهة، وبين المفرد والجمع من جهة ثانية، وبين المثنى والجمع من جهة ثالثة، وفي ذلك خروج عن مقتضى الظاهر. وقد ركز البحث على المعاني والأسباب التي أدت إلى هذا الخروج، وأورد الشواهد الكثيرة التي تثبت ذلك، وخلص في النهاية إلى أن ظاهرة التبادل بين المفرد والمثنى والجمع تثبت بوضوح ما تتمتع به قواعد العربية من مرونة واتساع، ومن تنوع في التعبير عن المراد، ومن اهتمام بالمعنى واستقامته .

### تمهيد

من الملاحظ أن قواعد اللغة العربية فيها كثير من مظاهر المرونة، مثال ذلك ما نجده في أجزاء الجملة العربية من جواز التقديم والتأخير، ومن الذكر والحذف، ومن التنوع في طرق الأداء، ومن التضمين والحمل على المعنى، ومن الموافقة لمقتضى الظاهر ومن المخالفة له، ومن التأويل والتقدير في الإعراب . وإذا كان الاشتقاق ميزة تعترّ بها اللغة العربية، فإن المرونة التي نلمحها في كثير من القواعد النحوية تثبت عظمة هذه اللغة .

وقد كان لحرية التعبير التي كان يتمتع بها العربي أثر كبير في لغته وفي مرونتها. ومن مظاهر المرونة في قواعد اللغة ظاهرة التبادل التي يمكن تطبيقها على كثير من المسائل النحوية.

سبق أن كتبت بحثاً عن ظاهرة التبادل بين المصدر وأسمي الفاعل والمفعول؛ أما الآن فإني أحاول الحديث عن ظاهرة التبادل بين المفرد والمثنى والجمع.

إن الظاهرة التي يدرسها هذا البحث تحت عنوان «التبادل بين المفرد والمثنى والجمع» قد وردت في مصطلحات متعددة في التراث اللغوي والنحوي. فعند ابن جني والزنجشري مثلاً تسمى (الحمل على المعنى<sup>(١)</sup>) وعند ابن الشجري تسمى (بظاهرة الاستغناء)<sup>(٢)</sup> كما أن السيوطي في المزهري يدرس هذه الظاهرة تحت باب عنوانه (معرفة خصائص اللغة).<sup>(٣)</sup> وبالمثل فإن عدداً من الدراسات الحديثة قد تناولت الظاهرة تحت عناوين مختلفة.

وبعد النظر فيما سبق استخدامه من مصطلحات أو هو فيما بين أيدينا من مصطلحات معاصرة رأيت أن أدرس هذه الظاهرة تحت عنوان (التبادل). وهو في معناه لا يخرج عن مفهوم (الحمل على المعنى) أو (الاستغناء) أو سواهما مما ورد من مصطلحات.

- 
- (١) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، حققه محمد علي النجار، مج ٢، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م (بيروت، لبنان: دار الهدى للطباعة والنشر)، ص ٤١١. وانظر: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزنجشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، مج ٢ (بيروت: دار الفكر للطباعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٤٣٤.
- (٢) ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي، ابن الشجري، الأمالي الشجرية، مج ١ (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ص ١٢.
- (٣) أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبوبكر جلال السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مج ١، ط ٤ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص ٣٣٣.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أنّ كلّ لغة تميّز بين المفرد والجمع وتتخذ لذلك أشكالاً مختلفة،<sup>(٤)</sup> وأنّ اللغة العربية تتخذ لهذه الفكرة ثلاث صيغ، واحدة للمفرد، وأخرى للمثنى وثالثة للجمع. وحين البحث في نصوص اللغة العربية وجدت تبادلاً بين المفرد والمثنى من جهة وبين المفرد والجمع من جهة ثانية وبين المثنى والجمع من جهة ثالثة، وفي ذلك خروج عن مقتضى الظاهر، ولم يكن هذا الخروج عبثاً، وإنما كان وراء ذلك كله معانٍ وأغراض وعلل سنكشف عنها — بمشيئة الله — في خاتمة هذا البحث. وقد رأيت أن أقسم هذا البحث على النحو التالي:

أولاً: التبادل بين المفرد والمثنى

ثانياً: التبادل بين المفرد والجمع

ثالثاً: التبادل بين المثنى والجمع

### أولاً: التبادل بين المفرد والمثنى

#### ١ - وضع المفرد موضع المثنى

عقد الثعالبي فصلاً في الجمع بين اثنين ثم ذكر أحدهما بالكناية دون الآخر، والمراد به كلاهما معاً فيقول<sup>(٥)</sup>: «من سنن العرب أن تقول رأيت عمراً وزيداً وسلّمت عليه أي عليهما». كما أشار ابن يعيش إلى أن الشيء إذا كان واحداً في الجسم كالرأس والظهر فيجوز أن تأتي به مفرداً. يمكنك أن تقول: ما أحسن رأسهما وضربت ظهر الزيدين.<sup>(٦)</sup> وربما استغنوا في هذا النحو بواحد - كما قال ابن الشجري، لأن إضافة العضو إلى اثنين تنبئ عن المراد كقولك ضربت رأس الرجلين، وشققت بطن الحملين.<sup>(٧)</sup> وقال الفراء، «ويجوز

(٤) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مج ٣ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٦م)، ص ١٣٨.

(٥) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي، فقه اللغة وسرّ العربية، تحقيق مصطفى

السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة: مصطفى الحلبي،

١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، ص ٣٣٨.

(٦) موقو الدين يعيش بن علي، ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤ (بيروت: عالم الكتب، القاهرة،

مكتبة المثنى، د.ت)، ص ١٥٦.

(٧) ابن الشجري، الأمالي الشجرية (حيدر أباد: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٤٩هـ)، مج ١،

في الكلام أن تقول: ائتني برأس شاتين ورأس شاة، فإذا قلت برأس شاة فإنما أردت رأسي هذا الجنس، وإذا قلت برأس شاتين فإنك تريد به الرأس من كل شاة. <sup>(٨)</sup>

وعلى أية حال فإن التعبير بالمفرد عن المثني موجود بكثرة في القرآن الكريم والشعر.

وإذا كان التعبير بالمفرد أو ضميره عن المثني أو ضميره موجوداً في أقوال العرب فإننا نلاحظ ذلك بكثرة في القرآن الكريم، قال الله تعالى ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ <sup>(٩)</sup> «فقد خاطب الله آدم وحواء ثم نص في إتمام الخطاب على آدم وأغفل حواء.» <sup>(١٠)</sup> والعلّة في ذلك كما وضّحها الزمخشري: «وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج، لأن في ضمن شقاء الرجل — وهو قيم أهله وأميرهم — شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها. . . أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت، وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه.» <sup>(١١)</sup> ويبدو لي أن رأي الزمخشري في تفسيره لهذه الآية وجيه، على الرغم من أن بعض العلماء — ومنهم الفراء <sup>(١٢)</sup> يرون أن المخاطب في الفعل (فَتَشْقَى) هو آدم وحده.

وفي نظري أن الخروج من الجنة لا يسبب الشقاء لآدم وحده، وإنما لهما معاً والذي يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ <sup>(١٣)</sup>. أضف إلى ذلك أن الله نص في بداية الآية على الاثنين معاً فقال ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾. كما

(٨) أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، مج ١، ط ٣ (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ص ٣٠٨.

(٩) سورة طه، آية رقم ١١٧.

(١٠) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٣٤٣.

(١١) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، مج ٣ (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ص ٥٥٥ - ٥٥٦.

(١٢) الفراء، معاني القرآن، مج ٢، ص ١٩٣.

(١٣) سورة الأعراف، آية رقم ١٩.

أورد بعضاً من الأفعال بصيغة المثنى في الآيات التي تلت هذه الآية، لهذا يبدو لي أن الكلام — كما قال الزمخشري — قد اختصر بإسناده إليه دونها. <sup>(١٤)</sup> وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ <sup>(١٥)</sup>، قال الفراء: «ولم يقل ينفقونها، فإن شئت وجهت الذهب والفضة إلى الكنوز فكان توحيدها من ذلك، وإن شئت اكتفيت بذكر أحدهما من صاحبه...» <sup>(١٦)</sup>

وقال الزمخشري،: «فإن قلت: لم قيل: ولا ينفقونها وقد ذكر شيان؟ قلت: ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ، لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودرهم... وقيل ذهب به إلى الكنوز، وقيل إلى الأموال، وقيل: معناه ولا ينفقونها والذهب...» <sup>(١٧)</sup> وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ <sup>(١٨)</sup>. فأفرد الضمير على الرغم من أنه راجع لشيئين والتقدير انفضوا إليهما.

قال الزمخشري مبيناً العلة في ذلك: «فإن قلت كيف قال ﴿إليها﴾ وقد ذكر شيئين، قلت: تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهما انفضوا إليه: فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وكذلك قراءة من قرأ: ﴿هُوَ وَتِجَارَةٌ انْفَضُّوا إِلَيْهَا، وَقُرَىءَ إِلَيْهِمَا﴾» <sup>(١٩)</sup>

وقال الفراء: «فجعل الهاء للتجارة دون اللهو... ولو قيل انفضوا إليه يريد اللهو كان صواباً، كما قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾» <sup>(٢٠)</sup>، ولم يقل بها، ولو قيل بهما وانفضوا إليهما كما قال: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ — كان صواباً.

(١٤) الزمخشري، الكشاف، مج ٣، ص ٩٣.

(١٥) سورة التوبة، آية رقم ٣٤.

(١٦) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٤٣٤.

(١٧) الزمخشري، الكشاف، مج ٢، ص ٢٦٨.

(١٨) سورة الجمعة، آية رقم ١١.

(١٩) الزمخشري، الكشاف، مج ٤، ص ٥٣٧.

(٢٠) سورة النساء، آية رقم ١١٢.

وأجود من ذلك في العربية أن تجعل الراجع من الذكر للآخر من الاسمين، وما بعد ذا فهو جائز، وإنما اختير في: انْفَضُّوا إِلَيْهَا في قراءتنا وقراءة عبدالله، لأن التجارة كانت أهم إليهم وهم بها أسرّ منهم بضرب الطبل، لأن الطبل إنّما دلّ عليها فالمعنى كلّها. «(٢١)»

وفي نظري أنّ هناك تبادلاً بين المثني والمفرد في هذه الآية، وذلك للأسباب الآتية:

(١) أنه تقدّم شيثان هما: التّجارة واللّهو، فكان المفروض حسب القواعد النحوية أن يرجع إليهما ضمير المثني. وفي إتيان الضمير مفرداً بدلاً من إتيانه مثني خروج عن مقتضى الظاهر الذي أرمي إليه.

(٢) إنّ الضمير كان ينبغي أن يرجع إلى أقرب مذكور وهو اللّهو، ولكنه رجع في هذه القراءة إلى التجارة لأهميتها، وهذا ما سأسير إليه في الخاتمة من أنّ المفرد أو ضميره محلّ محلّ المثني أو ضميره لأهمية المفرد وتعظيمه.

(٣) أضف إلى ذلك أنه قرئ (إليهما) (٢٢) بإعادة الضمير للتجارة واللّهو معاً. وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ (٢٣) قال الفراء: «وَلَمْ يَلَمْ يَقُلْ: وقدرهما، فإن شئت جعلت تقدير المنازل للقمر خاصة لأن به تعلّم الشهور. وإن شئت جعلت التقدير لهما جميعاً، فاكتفى بذكر أحدهما من صاحبه. (٢٤) وفي نظري أنّ الرأي الأول هو الأولى، لأن الله سبحانه وتعالى نصّ على تعلّم السنين والحساب بمنازل القمر حين قال ﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (٢٥).

(٢١) الفراء، معاني القرآن، مج ٣، ص ١٥٧.

(٢٢) الزمخشري، الكشاف، مج ٤، ص ٥٣٧.

(٢٣) سورة يونس، آية رقم ٥.

(٢٤) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٤٥٨.

(٢٥) سورة يونس، آية رقم ٥.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٦) والمراد أن يرضوهما، وقال تعالى أيضاً: ﴿فَأْتِيَافِرَعُونَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) فلم يُشَنَّ الله سبحانه كلمة ﴿رَسُولٌ﴾ في هذه الآية كما ذكرها مثناة في قوله ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ (٢٨) قال الأخفش: «وهذا يشبه أن يكون مثل العدو وتقول هُما عدو لي.» (٢٩) وقال رسول الله ﷺ: «... فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...» (٣٠)، أي لعينيك. (٣١)

أما في الشعر فقد كثرت وروده ولم يقتصر على شعر عصر بعينه، قال بشر بن خازم (٣٢):  
 فَرَجَّيَ الْخَيْرَ وَأَنْتَظِرِي إِيَّابِي إِذَا مَا الْقَارِظُ الْعَنْزِيُّ أَبَا  
 «وإنما هما قارظان من عنزة، وإنما قالوا كذلك، لأنها صارا كالشيثين اللذين لا يُغني أحدهما عن الآخر، فإنما يعبر عنها بصيغة المفرد» (٣٣)  
 وقال امرؤ القيس (٣٤):

لِمَنْ زَحْلُوقَةٌ زُلٌّ بِهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ

(٢٦) سورة التوبة، آية رقم ٦٢.

(٢٧) سورة الشعراء، آية رقم ١٦.

(٢٨) سورة طه، آية رقم ٤٧.

(٢٩) أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي الأخفش الأوسط، معاني القرآن، تحقيق فائز فارس، مج ٢، ط ٨ (الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٤٢٦.

(٣٠) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، صحيح البخاري، مج ٢ (استانبول: المكتبة الإسلامية، ١٩٨١م، الناشر: محمد أوزدمير)، كتاب الصوم، الحديث رقم ٥٥.

(٣١) ابن عصفور الإشبيلي، ضرائر الشعر، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، ط ١ (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٨٠م)، ص ٢٥١.

(٣٢) قاله بشر لابنته عند الموت، انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، (القاهرة: دار المعارف، د.ت) مادة قرظ؛ وانظر: خازم، ديوان بشر بن خازم الأسدي، تحقيق عزة حسن، ط ٢ (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ص ٢٦.

(٣٣) أحمد مطلوب، القزويني وشروح التلخيص، ط ١ (بغداد: مكتبة النهضة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص ٥٥٣.

(٣٤) امرؤ القيس بن حجر الكندي، ملحقات ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، =

فقال : تَنَهَّلُ ولم يقل تَنَهَّلَانِ .

وقال امرؤ القيس أيضاً<sup>(٣٥)</sup> :

وعين لها حَذْرَةٌ بَدْرَةٌ شَقَّتْ مَاقِيَهُمَا مِنْ أُخْرٍ  
وضَّح ابن عصفور التعبير بالمفرد عن المثنى في هذا البيت بقوله<sup>(٣٦)</sup> : « يريد : وعينين ،  
ولذلك عاد عليها ضمير اثنين ، فإنَّ ذلك ليس من قبيل الضرائر ، لأنَّ وضع الشَّيئين  
المتلازمين من نحو العينين واليدين والرَّجلين جائز في الكلام والشعر . » ومثله قول سلمى بن  
ربيعة السدي<sup>(٣٧)</sup> :

وَكَأَنَّ فِي الْعَيْنَيْنِ حَبٌّ قَرَنْفَلٍ أَوْ سَنْبَلًا كَحَلَّتْ بِهِ فَاَنْهَلَتْ  
فقد أسند الفعلين (كحل وانهل) إلى ضمير الغائب المفرد مع أن المتقدم مثنى وهو كلمة  
العينين .

ومن ذلك قول الفرزدق<sup>(٣٨)</sup> :

وَلَوْ بَخَلْتُ يَدَايَ بِهَا وَضَنْتُ لَكَانَ عَلَيَّ لِلْقَدْرِ الْخِيَارُ  
فقد أسند الفعل (ضنت) إلى ضمير الغائب المفرد مع أن المتقدم مثنى وهو كلمة (يداي) .

ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م)، ص ٤٧٢؛ وانظر: البغدادي، خزانة الأدب، تحقيق  
هارون (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٦٧م)، مج ٧، ص ٥٥٢، ٥٥٦؛ وانظر: ابن  
منظور: لسان العرب (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٥٦م/١٣٧٥هـ).

(٣٥) الكندي، ديوان امرؤ القيس، ص ١٦٦ .

(٣٦) ابن عصفور الإشبيلي، ضرائر الشعر، تحقيق السيد إبراهيم محمد (بيروت: دار الأندلس،  
١٩٨٠م)، ص ٢٥١ .

(٣٧) أبو علي بن الحسن المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون،  
ط ١ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧١هـ/١٩٥١م)، ص ٥٤٧؛ وانظر:  
البغدادي، خزانة الأدب، مج ٧، ص ٥٥٧ .

(٣٨) أبو فراس همّام بن غالب بن صعصعة الفرزدق، ديوان الفرزدق، مج ١ (بيروت: دار صادر،  
١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ص ٢٩٤ . ورواية صدر البيت في الديوان هكذا: وَلَوْ رَضِيَتْ يَدَايَ بِهَا  
وَقَرَّتْ . . .

وقول المعري: (٣٩)

كَأَنَّ أُذُنِيهِ أُعْطَتْ قَلْبَهُ خَبْرًا      عَنِ السَّمَاءِ بِمَا يُلْقَى مِنَ الْغَيْرِ  
قال الألويسي: «فإن قلت كيف لم يبرز الضمير في أعطت مع إسناده إلى ضمير الاثنين قلت: إما لأنه قد نزل العضوين منزلة عضو واحد، لأن المقصود بهما منفعة واحدة. . . وإما لأنه قد عامل المثنى معاملة الجمع.» (٤٠)

وقد ورد مثل ذلك في شعر المتنبي كثيراً، انظر إليه حين قال: (٤١)  
سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا      بَأَنِّي خَيْرٌ مَّنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

أي تسعى به قدمان، قال أيضاً: (٤٢)

وَتُعْجِبُنِي رِجَالُكَ فِي النَّعْلِ إِنِّي      رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلِ إِذْ كُنْتَ حَافِيًا

فقد أفرد النعل وحقها أن تكون مثناة، وقال أيضاً: (٤٣)

حَشَائِي عَلَى جَمْرِ ذِكِّي مِنَ الْغَضِي      وَعَيْنَايَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْحُسْنِ تَرْتَعُ  
«ولم يقل تَرْتَعَانِ، لأن حكم العينين حكم حاسة واحدة ولا تكاد تنفرد إحداها برؤية دون الأخرى فاكتفى بضمير الواحدة.» (٤٤)

(٣٩) أبو العلاء المعري، أحمد بن سليمان بن عبدالله، شروح سقط الزند، السفر الثاني، ق ١ (القاهرة: دار الكتب، ١٩٤٥م)، ص ١٤٦.

(٤٠) السيد محمد شكري الألويسي، الضرائر الشعرية وما يسوغ للشاعر دون الناثر، شرحه محمد بهجة الأثري (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤١هـ)، ص ٩٠.

(٤١) أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي (بيروت: دار بيروت وصادر، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م)، ص ٣٣٢.

(٤٢) المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح العكبري ضبط وتصحيح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي (القاهرة: مصطفى الباي الحلبي، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، مج ١، ص ٢٩٥.

(٤٣) المتنبي، ديوان، مج ١، ص ٢٣٥.

(٤٤) الألويسي، الضرائر، ص ٨٩.

وقال حسان بن ثابت: (٤٥)

إِنَّ شَرَّخَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسَدَ      حَوْدَ مَا لَمْ يُعَاصِرِ كَانَ جُنُونًا  
بين ابن الشَّجَرِي السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ الشَّاعِرَ يَأْتِي بِالضَّمِيرِ مُفْرَدًا مَعَ تَقَدُّمِ شَيْئَيْنِ حِينَ قَالَ:  
«قال: ما لم يعاصر، فأفرد الضمير وإن كان لاثنين؛ وذلك لأن كل واحد منهما بمنزلة الآخر  
فجريا مجرى الواحد، ألا ترى أن شرخ الشباب هو اسوداد الشعر ولولا أنها لاصطحابها  
صارا بمنزلة المفرد كان حق الكلام أن يقال: يعاصيا...» (٤٦)

قال عبد القادر البغدادي: «قال أبو حيان في تذكرته، قال أبو عمرو: إذا كان الاثنان  
لا يكاد أحدهما ينفك من الآخر مثل اليدين والرجلين والخفين، فإن تقدم مثناه جاز ذلك  
في الشعر والكلام أن توحد صفته فتقول: خفان جديد وجديدان وعينان ضخمة  
وضخمتان؛ لأن الواحد يدل على صاحبه إذا كان لا يفارقه.» (٤٧)

ووضع المفرد موضع المثنى كثير في الشعر، وبخاصة في النوع الذي يتميز فيه أحدهما  
بصفات لا تنطبق على الآخر مثل قول الفرزدق: (٤٨)

أَغْنِي بِكُنْهِي فِي نَزَارٍ وَمُقْبَلِي      فَإِنِّي كَرِيمُ الْمَشْرِقَيْنِ وَشَاعِرُهُ  
ألا ترى أن الضمير في كلمة (شاعره) مفرد مع أنه عائد على اثنين، وكان الوجه أن يقول:  
شاعرها، ومن ذلك قول الشاعر: (٤٩)

إِنِّي ضَمِنْتُ لِمَنْ أَتَانِي مَا جَنَى      وَأَبِي وَكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ غَدُورِ  
قال الفراء: «ولم يقل غدورين، وذلك لاتفاق المعنى يكتفي بذكر الواحد.» (٥٠)

(٤٥) حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين (القاهرة: وزارة الثقافة،

المكتبة العربية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص ١٨٠.

(٤٦) ابن الشَّجَرِي، الأملالي الشجرية، مج ١، ص ٣٠٩.

(٤٧) البغدادي، خزانة الأدب، مج ٧، ص ٥٥١.

(٤٨) الفرزدق، ديوان الفرزدق، مج ١، ص ٢٥٠.

(٤٩) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٤٣٤.

(٥٠) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٤٣٤.

ومن ذلك قول الشاعر: (٥١)

كَأَنَّهُ وَجْهٌ تُرْكِيٌّ قَدْ غَضِبَا مُسْتَهْدِفٌ لِبَطْعَانٍ غَيْرِ مُنْحَجِرٍ  
قال البغدادي: «على أنه إذا أضيف الجزءان لفظاً ومعنى إلى متضمنها المتحددين بلفظ واحد، فلفظ الإفراد في المضاف أولى من التثنية كما في البيت، فإنَّ (تُرْكِيٌّ) متضمنان ولفظهما متحد لجزأيهما وهما الوجهان، فإنَّ وجه كلِّ أحد جزء منه، فلما أضيف إليهما، أضيف بلفظ المفرد وهو الوجه، وهذا أولى من أن يقول: كأنه وجهاً تركيين. (٥٢)»

وقد أشار ابن الشجري في كتابه الأمالي، (٥٣) وابن عصفور في كتابه الضرائر (٥٤) إلى أن مثل هذا لا يستعمل إلا في الشعر. وعلى الرغم من ذلك فقد عارضهما الألويسي حين قال: «والصحيح أنه غير مختص بالشعر. (٥٥)»

كل هذا يدل على مرونة اللغة العربية ويشير إلى أن كل شيء في هذا يرجع إلى المعنى ووضوحه.

## ٢ - وضع المثنى موضع المفرد

ورد الإتيان بالمثنى وإرادة المفرد في كلام العرب، «تقول العرب: أفعلاً ذلك

(٥١) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ١٥٦. وأشار البغدادي في الخزانة (مج ٧، ص ٥٤٠) إلى أن البيت الشاهد: قافيته رائية لا بائية ونسبه للفرزدق، وهو من قصيدة يهجو بها جريراً ومطلعها:  
مَا تَأْمُرُونَ عِبَادَ اللَّهِ أَسْأَلُكُمْ بِشَاعِرٍ حَوْلَهُ دُرَّجَانٌ مُخْتَمَرٌ  
وقافية البيت في الديوان رائية وهو من قصيدة يهجو بها جريراً كما أشار البغدادي، ولكن مطلع القصيدة هكذا:

غَرَّ كَلْبِيًّا إِذَا اصْفَرَّتْ مَعَالِقُهَا بَضِيغِمِي كَرِيهِ الْوَجْهِ وَالْأَثْرِ  
انظر: شرح ديوان الفرزدق، تحقيق عبد الله إسماعيل الصّاوي، مج ١ (القاهرة: مطبعة الصّاوي، ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م)، ص ٣٧١.

(٥٢) البغدادي، خزانة الأدب، مج ٧، ص ٥٣٢ - ٥٣٣.

(٥٣) ابن الشجري، الأمالي الشجرية، مج ١، ص ١٢.

(٥٤) ابن عصفور الإشبيلي، ضرائر الشعر، ص ٢٥١.

(٥٥) الألويسي، الضرائر، ص ٩٨؛ وانظر: البغدادي، خزانة الأدب، مج ٧، ص ٥٣٨.

والمخاطب واحد<sup>(٥٦)</sup>»، وتقول: مَا فَعَلْتُمَا يَا فُلَانُ . وقد ورد في القرآن الكريم . قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى ﴾<sup>(٥٧)</sup> فقد لاحظنا أنه خاطب اثنين ثم جعل النداء لواحد، قال الزمخشري: «خاطب الاثنين ووجه النداء إلى أحدهما، وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة وهارون وزيره وتابعه.»<sup>(٥٨)</sup>

وعلل الفراء لذلك بقوله: «لأن الكلام إنما يكون من الواحد لا من الجميع، ومثله — مما جعل الفعل على اثنين وهو لواحد — قوله تعالى: ﴿ نَسِيحَاتُهُمَا ﴾<sup>(٥٩)</sup> وإنما نسيه واحد.»<sup>(٦٠)</sup>

ويبدو لي أن رأي الفراء واضح وصريح في التعبير بالثنى عن المفرد في هذه الآية، ولهذا نجده قرن هذه الآية بقوله تعالى ﴿ نَسِيحَاتُهُمَا ﴾.

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ۖ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدِي ﴾<sup>(٦١)</sup> فوحد القرين وثنى في الأمر وهو — كما قال الثعالبي — خطاب لمالك خازن

وقال الزمخشري: «ألقيا» خطاب من الله تعالى للملكين السابقين السابق والشهيد، ويجوز أن يكون خطاباً للواحد على وجهين: أحدهما قول المبرد: أن تثنية الفاعل نُزِلَتْ منزلة تثنية الفعل لا اتحادهما كأنه قيل: أَلْقَى أَلْقَى للتأكيد، والثاني أن العرب أكثر ما يرافق الرجل

(٥٦) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٣٤٠.

(٥٧) سورة طه، آية رقم ٤٩.

(٥٨) الزمخشري، الكشاف، مج ٣، ص ٦٧.

(٥٩) سورة الكهف، آية رقم ٦١.

(٦٠) الفراء، معاني القرآن، مج ٢، ص ١٨٠.

(٦١) سورة ق، الآيتان ٢٣، ٢٤.

(٦٢) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٣٤٠.

منهم اثنان فكثرت على ألسنتهم أن يقولوا خَلِيلِيَّ وصَاحِبِيَّ وَقِفَا وَأُسْعِدَا حَتَّى خَاطَبُوا الْوَاحِدَ خَاطَبَ الْاِثْنَيْنِ. فعن الحجاج أنه كان يقول: حَرَسِي اضْرِبَا عُنُقَهُ — وقرأ الحسن: الْقَيْنَ بِالنُّونِ الخفيفة، ويجوز أن تكون الألف في (ألقيا) بدلاً من النون: إجراءً للوصل مجرى الوقف. «(٦٣) وقال الفراء: «العرب تأمر الواحد والقوم بما يُؤمَرُ به الاثنان فيقولون للرجل: قَوْمًا عَنَّا، وَسَمِعْتُ بَعْضَهُمْ: وَيَحْكُ، أَرْحَلَاهَا وَأَزْجَرَاهَا.» (٦٤)

وقال تعالى أيضاً: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ﴾ (٦٥) وإذا قيل: ف «كَيْفَ قَالَ: فلا جناح عليهما وإنما الجناح — فيما يذهب إليه الناس — على الزوج، لأنه أخذ ما أعطى؟ ففي ذلك وجهان: أن يُراد الزوج دون المرأة وإن كانا قد ذكرا جميعاً في سورة الرحمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٦٦) وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح لا من العذب. ومنه: ﴿نَسِيًّا حَوْتَهُمَا﴾، (٦٧) وإنما الناسي صاحب موسى وحده. ومثله في الكلام أن تقول: عندي دابتان أركبهما وأستقي عليهما وإنما يركب إحدهما ويستقي على الأخرى، وقد يمكن أن يكونا جميعاً تركبان ويستقي عليهما، وهذا من سعة العربية التي يحتج بسعتها. «(٦٨) وبالإضافة إلى استعمال المثنى وإرادة المفرد في القرآن الكريم فقد ورد في الشعر كثيراً ومن ذلك قول ابن المعتز: (٦٩)

فَكَأَنَّ كَفَّيْهِ يُقْسِمُ فِي أَقْدَانِنَا قِطْعًا مِنَ الشَّمْسِ  
ودائماً نجد في الشعر قولهم: يَا خَلِيلِيَّ، وَيَا صَاحِبِيَّ، والمخاطب واحد، ألا ترى أن

(٦٣) الزمخشري، الكشاف، مج ٤، ص ٣٨٧.

(٦٤) الفراء، معاني القرآن، مج ٣، ص ٧٨، ٧٩.

(٦٥) سورة البقرة، آية رقم ٢٢٩. وانظر محمد عبد الخالق عزيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ق ٣، مج ١ (القاهرة: مطبعة حسان، د.ت)، ص ٧٨.

(٦٦) سورة الرحمن، آية رقم ٢٢.

(٦٧) سورة الكهف، آية رقم ٦١.

(٦٨) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ١٤٧؛ وانظر: عزيمة، دراسات لأسلوب القرآن، ق ٣، مج ١، ص ٧٨.

(٦٩) أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل، ديوان ابن المعتز (بيروت: دار صادر وبيروت،

١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص ٢٧٠.

امراً القيس قال: (٧٠)

قَفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ  
وقد بين الزوزني كلمة (قفا) في هذا البيت بقوله: «قيل خاطب صاحبيه، وقيل بل خاطب واحدا وأخرج الكلام مخرج الخطاب مع الاثنين؛ لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع». (٧١) وقال امرؤ القيس أيضاً: (٧٢)

خَلِيلِي مُرًّا بِي عَلَيَّ أُمُّ جُنْدُبٍ نَقَضَ لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمَعْدَبِ

ثم قال: (٧٣)

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كَلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيْبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ  
قال الفراء عن هذا البيت: «فقال: ألم تر فرجع إلى الواحد وأول كلامه اثنان...» (٧٤)

قال المتلمس: (٧٥)

قُولًا لِعَمْرُو بْنِ هِنْدٍ غَيْرِ مُتَّيَّبِ يَا أَحْسَنَ الْأَنْفِ وَالْأَضْرَاسِ كَالْعَدَسِ

وقال الآخر: (٧٦)

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدْعَانِي أَحْمِ عِرْضًا مُنْعَبًا  
«فقد قيل إن الألف من (قولا) و (تزجراني) ضمير اثنين وضع موضع ضمير الواحد، بدليل

(٧٠) الكندي، ديوان امرئ القيس، ص ٨.

(٧١) أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع (بيروت: دار الثقافة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م)، ص ٦.

(٧٢) الكندي، ديوان امرئ القيس، ص ٤١.

(٧٣) الكندي، ديوان امرئ القيس، ص ٤١.

(٧٤) الفراء، معاني القرآن، مج ٣، ص ٧٩.

(٧٥) أبوزيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، كتاب جمهرة أشعار العرب، طبعة منقحة عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٨هـ (بيروت: دار المسيرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص ٣٤.

(٧٦) أبو الفضل عبدالرحمن بن الكمال أبوبكر جلال السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، حققه طه عبدالرءوف سعد، مج ٤ (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص ١٨٨؛ وانظر: الزوزني، شرح المعلقات السبع، هامش ص ٦.

قوله، في البيت الأول (غير متثب) ولم يقل غير متثبين، وفي البيت الثاني (يا ابن عفان) فدل ذلك على أنه لم يخاطب غيره، وقد قيل: إن الألف فيها بدل من النون الخفيفة في الوصل إجراءً له مجرى الوقف، والأصل: قوله وَإِنْ تَزْجُرْنَ وَإِنْ تَدْعُنَّ. «(٧٧)

وقال الفرزدق: (٧٨)

عَشِيَّةَ سَأَلَ الْمَرْبِدَانَ كِلَاهُمَا      عَجَاجَةَ صَوْتِ بِالسُّيُوفِ الصَّوَارِمِ  
وإنما هو مربد البصرة.

وقال الفرزدق أيضاً: (٧٩)

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي ابْنُ صَاحِبِ صَوَارٍ      وَعِنْدِي حُسَامًا سَيْفِهِ وَحَمَائِلُهُ  
يريد حسام سيفه. (٨٠)

ومن ذلك قول عنزة: (٨١)

كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا      بَعْنَيْزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلِمِ  
يريد: عنزة، قال ابن عصفور: «ويكثر ذلك في أسماء الأماكن؛ لأن الدّاخل إليها يرى لها وجهين عن يمينه ويساره.» (٨٢)

وفي ذلك مرونة واتساع وتنوع في التعبير وحمل على المعنى.

(٧٧) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٧٨) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ص ٣١٩؛ وانظر: ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص ٢٥٣، وفي الديوان (عجاجة موت) بدلاً عن (عجاجة صوت).

(٧٩) الفرزدق، الديوان، ص ١٧٣.

(٨٠) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص ٢٥٣.

(٨١) عنزة بن شداد العبسي، أشعار عنزة العبسي، تقديم وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي، ط ١ (القاهرة: مطبعة عاطف وسيد طه، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م)، ص ٢٢؛ وانظر: الزوزني، المعلقات السبع، ص ٨.

(٨٢) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص ٢٥٤.

## ثانياً: التبادل بين المفرد والجمع

## ١ - وضع المفرد موضع الجمع

ورد التعبير بالمفرد عن الجمع كثيراً في كلام العرب . يقولون «لله دَرَكٌ مِنْ رَجُلٍ» . (٨٣)  
«مِنْ» في هذا المثال تفيد التبويض عند بعضهم والتقدير لقد عظمت من الرجال ، فوضع  
المفرد موضع الجمع ، والنكرة موضع المعرفة للعلم وطلباً للاختصار» (٨٤)

ومن سنن العرب قولهم «قَرَرْنَا بِهِ عَيْنًا» (٨٥) أي أعيناً ، قال سيبويه : «وقررنا به عيناً  
وإن شئت قلت : أعيناً وأنفساً كما قلت : ثلاثمائة وثلاث مئين أو مئات» (٨٦) وقولهم : هُوَ  
أَحْسَنُ الْفِتْيَانِ وَأَجْمَلُهُ - جاء الضمير في كلمة (أَجْمَلُهُ) مفرداً مع أنه يعود إلى جمع ، «لأن هذا  
موضع يكثر فيه الواحد كقولك : هُوَ أَحْسَنُ فَتَى فِي النَّاسِ» . (٨٧) ومثل ذلك قولهم : «كُلُّ  
رَجُلٍ يَفْعَلُ هَذَا» الأصل كُلُّ الرَّجَالِ يَفْعَلُ هَذَا، (٨٨) ومثل ذلك قولهم ثلاثمائة إلى  
التسعمائة .

قال سيبويه : «وأما ثلاثمائة إلى تسعمائة فكان ينبغي أن تكون في القياس مئين أو  
مئات ، ولكنهم شبهوه بعشرين وأحد عشر ، حيث جعلوا ما يبين به العدد واحداً ، لأنه اسم  
لعدد كما أن عشرين اسم لعدد وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً والمعنى  
جميع حتى قال بعضهم في الشعر ما لا يستعمل في الكلام .» (٨٩) وهذا ما ذهب إليه المبرد

(٨٣) السيوطي ، الأشباه والنظائر ، مج ١ ، ص ٣٠ .

(٨٤) السيوطي ، الأشباه والنظائر ، مج ١ ، ص ٣٠ .

(٨٥) الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية ، ص ٣٣٩ .

(٨٦) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، كتاب سيبويه ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (بيروت : عالم  
الكتب ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) ، ص ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٨٧) ابن جنبي ، الخصائص ، مج ٢ ، ص ٤١٩ .

(٨٨) السيوطي ، الأشباه والنظائر ، مج ١ ، ص ٣٠ .

(٨٩) سيبويه ، الكتاب ، مج ١ ، ص ٢٠٩ .

حين قال: «وقد جاز في الشعر أن تفرد وأنت تريد الجماعة إذا كان في الكلام دليل على الجمع.»<sup>(٩٠)</sup>

وقال ابن يعيش: «ومما شذَّ عن ذلك قولهم ثلاثمائة: يريد أنه شاذَّ عن القياس، وأما من جهة الاستعمال فكثير مطرد.»<sup>(٩١)</sup>

وهذا الذي جعله سيويه والمبرد والزنجشري جائزاً في الضرورة جعله الفراء جائزاً في الكلام غير مختص بالشعر،<sup>(٩٢)</sup> ويؤيده في ذلك ابن جني<sup>(٩٣)</sup> والبغدادي حين قال: «الصحيح أنه غير مختص بالشعر.»<sup>(٩٤)</sup>

وعلى أية حال فقد ورد التعبير بالمفرد عن الجمع كثيراً في القرآن الكريم وفي الشعر.

أما في القرآن الكريم فقد ورد التعبير بالمفرد عن الجمع في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَأَلْمَلَيْكَهٗ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيْرًا﴾<sup>(٩٥)</sup> قال الفراء: «يريد: أعوان، ولم يقل ظهراء،»<sup>(٩٦)</sup> وقال الزجاج: «الملائكة بعد ذلك ظهير، أي ظهراء.»<sup>(٩٧)</sup>

وقال تعالى: ﴿وَحَسُنَ اٰوْلٰٓئِكَ رَفِيْقًا﴾<sup>(٩٨)</sup> قال صاحب اللسان: «أي رفقاء، فهو

(٩٠) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبدالحال عزيمة، مج ٢ (بيروت: عالم الكتب، ١٩٦٣م)، ص ١٧١.

(٩١) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٦، ص ٢١.

(٩٢) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٣٠٧؛ مج ٢، ص ١٠٢؛ وانظر: البغدادي، خزانة الأدب، مج ٧، ص ٥٦١.

(٩٣) البغدادي، خزانة الأدب، مج ٧، ص ٥٦٢.

(٩٤) البغدادي، خزانة الأدب، مج ٧، ص ٥٣٨.

(٩٥) سورة التحريم، آية رقم ٤.

(٩٦) الفراء، معاني القرآن، مج ٣، ص ١٦٧.

(٩٧) اللسان، مادة (ظهر).

(٩٨) سورة النساء، آية رقم ٦٩.

مثل ظهير في معنى ظهراء أفرد في موضع الجمع. «(٩٩) وقال تعالى: ﴿فَاتَّهَمُوا عَدُوِّيَ الْآرَبَ الْعَلَمِينَ﴾ (١٠٠) أي أعدائي. وقال تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ أي أضيائي. (١٠١)

ويمكننا أن نقول: إن التبادل بين المفرد والجمع ليس قوياً في الآيات السابقة التي وردت فيها مصادر أو جاءت فيها صيغتا فعيل وفعول، وذلك لأن المصدر يجوز أن تتركه مفرداً وتصف به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث فتقول مثلاً: هَذَا رَجُلٌ عَدْلٌ، وَهَذَانِ رَجُلَانِ عَدْلٌ، وَهَؤُلَاءِ رِجَالٌ عَدْلٌ، وَنِسْوَةٌ عَدْلٌ، وتقول: أَنْتِ طَلَّاقٌ وَأَنْتِمَا طَلَّاقٌ وَأَنْتُمْ طَلَّاقٌ. (١٠٢)

قال ابن مالك:

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَالْتَزَمُوا الْإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَ (١٠٣)

ومثل هذا ينطبق على صيغتي (فَعُولٌ وَفَعِيلٌ) اللتين يستوي فيهما المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، فتقول مثلاً: الرَّجُلُ ظَهِيرٌ وَالْمَرْأَةُ ظَهِيرٌ وَالرَّجُلَانِ ظَهِيرٌ وَالرِّجَالُ ظَهِيرٌ، وتقول: هَذَا ضَيْفِي وَهَذِهِ ضَيْفِي وَهَذَانِ ضَيْفِي وَهَؤُلَاءِ ضَيْفِي.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ (١٠٤) أي أنفساً. وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (١٠٥) أي أطفالاً. «واقصر على الواحد؛ لأن الغرض بيان الجنس». (١٠٦)

(٩٩) اللسان، مادة (ظهر).

(١٠٠) سورة الشعراء، آية رقم ٧٧.

(١٠١) سورة الحجر، آية رقم ٦٨.

(١٠٢) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ١، ص ١٢.

(١٠٣) ابن مالك، ألفية ابن مالك في النحو والصرف (القاهرة: دار مصر للطباعة، د.ت.)، ص ٣٢.

(١٠٤) سورة النساء، آية رقم ٤.

(١٠٥) سورة غافر، آية رقم ٦٧.

(١٠٦) الزمخشري، الكشاف، مج ٤، ص ١٧٧.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (١٠٧) قال الزمخشري: «خصَّ النبي ﷺ لأنَّ النبي إمام أمته وقُدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يَا فَلَانُ أَفْعَلُوا كَيْتَ وَكَيْتَ، إظهاراً لتفوقه واعتباراً لترؤسه وأنه قدوة قومه ولسانهم والذي يصدر عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه فكان هو وحده في حكم كلهم وسادا مسدِّ جميعهم.» (١٠٨)

وقال تعالى: ﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ (١٠٩) فإنه وحَدَّ السَّمْعَ مع جمع القلوب لأمن اللبس. (١١٠)

وقال تعالى أيضاً: ﴿ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ (١١١) والتفريق لا يكون إلا بين اثنين. والتقدير: لا نفرق بينهم. (١١٢) وقال تعالى أيضاً: ﴿ فَمَالْنَا مِنْ شَفِيعِينَ ﴿١١٣﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ (١١٣)

قال الزمخشري: «فإن قلت لم جمع الشافع ووحَد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق... ويجوز أن يريد بالصديق الجمع.» (١١٤) وقال تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١١٥)

وقد بين الزمخشري الحكمة في الإتيان بكلمة (وَلِيٍّ) مفردة بدلاً من مجيئها جمعاً (أولياء) حين قال: «فإن قلت قد ذكرت جماعة فهلاً قيل: إنها أولياؤكم؟ قلت: أصل

(١٠٧) سورة الطلاق، آية رقم ١.

(١٠٨) الزمخشري، الكشاف، مج ٤، ص ٥٥٢.

(١٠٩) سورة البقرة، آية رقم ٧.

(١١٠) البغدادي، خزانة الأدب، مج ٧، ص ٥٦٣.

(١١١) سورة البقرة، آية رقم ١٣٦.

(١١٢) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٣٣٩.

(١١٣) سورة الشعراء، الآيتان رقم ١٠٠، ١٠١.

(١١٤) الزمخشري، الكشاف، مج ٣، ص ٣٢٢.

(١١٥) سورة المائدة، آية رقم ٥٥.

الكلام: إنما وليكم الله، فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع، ولو قيل: «إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع.» (١١٦)

وقال تعالى: ﴿فَمَا يَكْمُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (١١٧) فإن قلت: كيف يوصف الواحد بالجمع؟ وكيف يخبر به عنه؟ قلت: جوابها أنه اسم عام (١١٨) ولهذا جاء ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ (١١٩).

وقال تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (١٢٠) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢١﴾. فقد أفرد الله كلمة الصلاة أولاً ثم جمعها في آخر الآيات. وقد بين الزمخشري العلة في ذلك حين قال: «فإن قلت كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخرًا، (قلت): هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وُصِفُوا أولاً بالخشوع في صلاتهم، وآخرًا بالمحافظة عليها وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدوها في أوقاتها وقيموا أركانها، ويؤكّلوا أنفسهم بالاهتمام بها، وربّما ينبغي أن تتمّ به أوصافها.» وأيضًا: «فقد وُحِدَتْ أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت، وجمعت آخرًا لتفاد المحافظة على أعدادها... وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كلّ صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنّازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتّهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل.» (١٢١)

(١١٦) الزمخشري، الكشاف، مج ١، ص ٦٤٨.

(١١٧) سورة الحاقة، آية رقم ٤٧.

(١١٨) أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام، شرح شذور الذهب،

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط ٤ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى،

١٣٦٧هـ/١٩٤٨م)، ص ٢٠٣.

(١١٩) سورة البقرة، آية رقم ٢٨٥.

(١٢٠) سورة المؤمنون، الأيتان رقم ٢، ٩.

(١٢١) الزمخشري، الكشاف، مج ٣، ص ١٧٧.

أما في الشعر فقال العباس بن مرداس: (١٢٢)

فَقُلْنَا اسْلُمُوا إِنَّا أَخُوكُمْ      فَقَدْ بَرَّتْ مِنَ الْإِحْنِ الصُّدُورُ

قال ابن جني: فيجوز أن يكون جمع أخ قد حذفت نونه للإضافة، ويجوز أن يكون واحداً

وقع موقع الجماعة . . .» (١٢٣) وفي نظري أن الرأي الثاني أوضح، وقال علقمة بن عبدة: (١٢٤)

بَهَا جِيفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا      فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ

والشاهد فيه أن (جلدها) مفرد أريد به الجمع، أي جلودها. (١٢٥) وقال المسيب بن يزيد مناة

الغنوي: (١٢٦)

لَا تُنْكِرُوا الْقَتْلَ وَقَدْ سُبِينَا      فِي حَلْقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ سُجِينَا

قال ابن يعيش: «أفرد الحلق والمراد حلوقكم لأمن اللبس . . .» (١٢٧) ومما جاء في الشعر على لفظ

الواحد يراد به الجمع قول الشاعر:

كُلُّوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفُّوا      فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصٌ (١٢٨)

«والشاهد فيه وضع البطن موضع البطون؛ لأنه اسم جنس ينوب واحده عن جمعه فأفرد

اجتزاء بلفظ الواحد عن الجميع، لأنه لما أضاف البطن إلى ضمير الجماعة عُلِمَ أنه أراد

(١٢٢) المبرد، المقتضب، مج ٢، ص ١٧٤؛ وانظر: ابن جني، الخصائص، مج ٢، ص ٤٢٢.

(١٢٣) ابن جني، الخصائص، مج ٢، ص ٤٢٢؛ وانظر: المبرد، المقتضب، مج ٢، ص ١٧٤.

(١٢٤) السيد أحمد صقر، شرح ديوان علقمة الفحل (القاهرة: المطبعة المحمدية، ١٩٣٥م)، ص ١٤؛

وانظر: سيبويه، الكتاب، مج ١، ص ٢٠٩؛ وانظر: البغدادي، الخزانة، مج ٧، ص ٥٥٩؛

وانظر: المبرد، المقتضب، مج ٢، ص ١٧٣.

(١٢٥) سيبويه، الكتاب، مج ١، هامش ص ٢٠٩.

(١٢٦) الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبدالرحيم محمود (بيروت: دار المعرفة،

١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، مادة (شجو)؛ وانظر: سيبويه، الكتاب، مج ١، ص ٢٠٩؛ وانظر:

البغدادي، الخزانة، مج ٧، ص ٥٥٩.

(١٢٧) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٦، ص ٢٣.

(١٢٨) سيبويه، الكتاب، مج ١، ص ٢١٠؛ وانظر: الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٣٠٧؛ مج ٢،

ص ١٠٢؛ وانظر: ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٦، ص ٢١؛ والبغدادي، خزانة الأدب،

مج ٧، ص ٥٥٩؛ والزمخشري، أساس البلاغة، مادة (خمص).

الجمع إذ لا يكون للجماعة بطن واحد. «(١٢٩)

قال أبو ذؤيب الهذلي: (١٣٠)

وَلَوْ أَنِّي اسْتَوَدَعْتُهُ الشَّمْسَ لَارْتَقَتْ إِلَيْهِ الْمَنَايَا عَيْنَهَا وَرَسُولُهَا  
قال صاحب اللسان: «أراد نفسها، وكان يجب أن يقول: أعينها ورسولها؛ لأن المنايا جمع،  
فوضع الواحد موضع الجمع.» (١٣١)

وقال جرير: (١٣٢)

تَدْعُوكَ تَيْمٌ وَتَيْمٌ فِي قُرَى سَبَأٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ  
فوضع جلد موضع جلود.

وقال الآخر: (١٣٣)

يَا عَاذِلَاتِي لَا تَزِدْنَ مَلَامَتِي إِنَّ الْعَوَاذِلَ لَسَنَ لِي بِأَمِيرٍ  
يعني لسن لي بأمرأء. (١٣٤)

وقال أبو ذؤيب: (١٣٥)

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبْرِ  
أراد بالرسول، الرسل.

(١٢٩) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٦، ص ٢٢.

(١٣٠) أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، كتاب شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبدالستار أحمد

فراج، مج ١، شعر أبي ذؤيب الهذلي (القاهرة: مكتبة دار العروبة، مطبعة المدني)، ص ٣٣.

(١٣١) ابن منظور، اللسان، مادة (عين).

(١٣٢) أبو حذرة جرير بن عطية بن حذيفة، ديوان جرير، شرح محمد حبيب، مج ١ (القاهرة: دار

المعارف، ١٩٦٩م)، ص ١٣٠.

(١٣٣) ابن منظور، اللسان، مادة (ظهر).

(١٣٤) ابن منظور، اللسان، مادة (ظهر).

(١٣٥) السكري، كتاب أشعار الهذليين، مج ١، ص ١١٣.

وقال ذو الرّمة: (١٣٦)

وَمِيَّةٌ أَحْسَنُ الثَّقَلَيْنِ وَجْهًا وَسَالِفَةٌ وَأَحْسَنُهُ قَدَالًا  
فإذا نظرنا إلى بيت ذي الرّمة هذا نلاحظ «أنه أفرد الضمير مع قدرته على جمعه، وهذا يدلّك على قوة اعتقادهم أحوال الموضع وكيف ما يقع فيها، ألا ترى أن الموضع موضع جمع وقد تقدّم في الأول لفظ الجمع فترك اللفظ وموجب الموضع إلى الأفراد، لأنه مما يؤلّف في هذا المكان.» (١٣٧)

## ٢ - وضع الجمع موضع المفرد

قد ورد استعمال الجمع في موضع المفرد في كلام العرب، يقولون: شَابَتْ مَفَارِقُهُ وَهُوَ كَثِيرُ الْعَثَانِينَ... (١٣٨) ويقولون: رَجُلٌ شَدِيدٌ مَجَامِعِ الْكَتْفَيْنِ وَلَا يَكُونُ لَهُ إِلَّا مَجْمَعٌ وَاحِدٌ. (١٣٩) ويقولون: «بُرْمَةٌ أَعْشَارٌ وَثَوْبٌ أَهْدَامٌ وَحَبْلٌ أَحْدَاقٌ... وَأَرْضٌ سَبَاسِبٌ، يُسَمُّونَ كُلَّ بُقْعَةٍ سَبَسَبًا لَا تَسَاعَهَا.» (١٤٠) قال سيبويه: (١٤١) «وسألته عن قول بعض العرب: آتِيكَ عَشِيَّانَاتٍ وَمُغَيَّرِيَّانَاتٍ فَقَالَ: جَعَلَ ذَلِكَ الْحَيْنَ أَجْزَاءً، لِأَنَّهُ حِينَ كَلَّمَا تَصَوَّبَتْ فِيهِ الشَّمْسُ ذَهَبَ مِنْهُ جِزَاءٌ، فَقَالُوا: عَشِيَّانَاتٍ، كَأَنَّهُمْ سَمَّوْا كُلَّ جِزَاءٍ مِنْهُ عَشِيَّةً، وَمِثْلَ ذَلِكَ قَوْلِكَ الْمَفَارِقِ فِي مَفْرُقٍ، جَعَلُوا الْمَفْرُقَ مَوَاضِعَ، ثُمَّ قَالُوا: الْمَفَارِقُ، كَأَنَّهُمْ سَمَّوْا كُلَّ مَوْضِعٍ مَفْرُقًا...»

(١٣٦) غيلان بن عقبة ذو الرّمة، ديوان ذي الرّمة، تحقيق عبدالقدوس أبو صالح، ط ٢ (بيروت: مؤسسة الإيمان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ١٥٢١؛ ورواية الديوان (خدا) بدلا من (وجهها) وفي اللسان (وجهها)؛ انظر: اللسان، مادة (ثقل).

(١٣٧) ابن جنّي، الخصائص، مج ٢، ص ٤١٩.

(١٣٨) ابن جنّي، الخصائص، مج ٢، ص ٤٢٢.

(١٣٩) الزّوزني، شرح المعلقات السبع، هامش ص ٣٢.

(١٤٠) السيوطي، المزهرة، مج ١، ص ٣٣٣.

(١٤١) سيبويه، الكتاب، مج ٣، ص ٤٨٤.

وقد جاء مثل هذا في القرآن الكريم، قال تعالى على لسان من حضره الموت : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا ۖ ﴾، (١٤٢) قال الفراء : «فجعل الفعل كأنه للجميع وإنما دعا ربه .» (١٤٣) وخاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله : (١٤٤) «وَأِنْ شِئْتَ حَرَمْتُ النَّسَاءَ سِوَاكُمْ .»

وقال تعالى أيضا : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾، (١٤٥) وإنما أراد المسجد الحرام . قال الزمخشري : «يعني المسجد الحرام، لقوله ﴿وعمارة المسجد الحرام﴾ . وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان : «أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد، لأنه قبله المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد، والثاني أن يراد جنس المساجد .» (١٤٦)

قال الفراء : «وهو يعني المسجد الحرام وحده، وقراها مجاهد وعطاء بن رباح : مسجد الله . . . وربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى الرجل على بردون، فتقول : قد أخذت في ركوب البراذين، وترى الرجل كثير الدراهم فتقول : إنه لكثير الدرهم، فأدى الجمع عن الواحد والواحد عن الجمع .» (١٤٧)

وقال تعالى أيضا : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْهَا ثُمَّ فِيهَا ﴾ (١٤٨) وكان القاتل واحداً، (١٤٩) فاستغني بالواحد على الجميع . (١٥٠) وقال تعالى : ﴿ إِنْ نَقَفَ عَنْ طَائِفَةٍ ﴾ (١٥١) والمراد

(١٤٢) سورة المؤمنون، الآيتان رقم ٩٩، ١٠٠ .

(١٤٣) الفراء، معاني القرآن، مج ٢، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(١٤٤) الزمخشري، الكشاف، مج ١، ص ٢٩٤؛ مج ٢، ص ٣٨٣؛ مج ٣، ص ٢٠٢ .

(١٤٥) سورة التوبة، آية رقم ١٧ .

(١٤٦) الزمخشري، الكشاف، مج ٢ (بيروت : دار الفكر، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ص ١٧٨ .

(١٤٧) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٤٢٦ .

(١٤٨) سورة البقرة، آية رقم ٧٢ .

(١٤٩) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٣٤٠ .

(١٥٠) الأخفش، معاني القرآن، مج ٢، ص ٤٨٣ .

(١٥١) سورة التوبة، آية رقم ٦٦ .

واحد. (١٥٢) وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ (١٥٣) والمنادى واحد. (١٥٤) وقال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ (١٥٥) فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده؟ وهو قوله ﴿ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا ﴾ بعد قوله (قُلْ)؟

قلت: معناه: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين وقال في موضع آخر: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمْ ﴾ (١٥٦) ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ كقوله: (١٥٧) ﴿ وَإِن شِئْتَ حَرَمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ بِمِ بَرَجِ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١٥٨) وهو واحد بدليل ارجع إليهم. (١٥٩)

كما جاء مثل ذلك في الشعر، قال جرير: (١٦٠)  
قَالَ الْعَوَاذِلُ مَا لَجْهَلِكَ بَعْدَمَا شَابَ الْمَفَارِقُ وَاکْتَسَيْنَ قَتِيرًا  
ومن ذلك قولهم للبعير: ذُو عَثَانَيْنِ، كأنهم جعلوا كل جزء منه عُثُونًا ونحو ذا كثير.

ويقولون للسيد العظيم وللحاكم الكبير: انظُرُوا فِي أَمْرِي، كما أن الملوك والسادة يقولون: «نَحْنُ فَعَلْنَا وَإِنَّا أَمَرْنَا». (١٦١)

- 
- (١٥٢) السيوطي، الزهر، مج ١، ص ٣٣٣.  
(١٥٣) سورة الحجرات، آية رقم ٤.  
(١٥٤) السيوطي، الزهر، مج ١، ص ٣٣٣.  
(١٥٥) سورة هود، آية رقم ١٤.  
(١٥٦) سورة القصص، آية رقم ٥٠.  
(١٥٧) الزمخشري، الكشاف، مج ٢، ص ٣٨٣؛ وانظر: محمد عبد الخالق عزيمة، دراسات لأسلوب القرآن، ق ٣ (القاهرة: مطبعة حسان، د.ت.)، مج ١، ص ٧٢.  
(١٥٨) سورة النمل، آية رقم ٣٥.  
(١٥٩) السيوطي، الزهر، مج ١، ص ٣٣٣.  
(١٦٠) جرير، ديوان جرير، ص ٢٨٩.  
(١٦١) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٣٣٩؛ وانظر: الزهر، للسيوطي، مج ١، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

وعلى منوال هذا قال الأعشى: (١٦٢)  
 وَمِثْلُكَ مُعْجَبَةٌ بِالشَّبَابِ      بِصَاكَ الْعَبِيرِ بِأَجْسَادِهَا  
 يقصد بالأجساد جسدها.

وقال الفرزدق: (١٦٣)  
 فَيَا لَيْتَ دَارِي بِالْمَدِينَةِ أَصْبَحْتُ      بِأَخْفَارِ فَلَجٍ أَوْ بِسَيْفِ الْكَوَاطِمِ  
 يريد: الحفر وكاظمة.

وقال الفرزدق أيضاً: (١٦٤)  
 وَإِذَا ذَكَرْتَ أَبَاكَ أَوْ أَيَّامَهُ      أَخْرَاكَ حَيْثُ تُقْبَلُ الْأَحْجَارُ  
 يريد الحجر فإنه جعل كل ناحية حجراً، ألا ترى أنك لو مسست كل ناحية منه لجاز أن  
 تقول: «مَسَسْتُ الْحَجَرَ.» (١٦٥)

وقال ابن عصفور: «ووجه ذلك أن العرب قد توقع على الجزء اسم الكل، ألا ترى  
 أنك لو لمست ناحية من الحجر أو من الصهوة أو من الجيد، لقلت لمست الحجر ولمست  
 الصهوة ولمست الجيد.» (١٦٦)

وقال عبيد: (١٦٧)  
 أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهَا مَلْحُوبٌ      فَالْقَطِيبَاتُ فَالذُّنُوبُ

(١٦٢) أبو بصير ميمون بن قيس الأعشى، ديوان الأعشى (بيروت: دار صادر، ١٩٦٦م)، ص ٥٨.  
 (١٦٣) الفرزدق، الديوان، مج ٢، ص ٣٠٧، وصدر البيت في الديوان هكذا: وَيَأَلَيْتَ زَوْرَاءَ الْمَدِينَةِ  
 أَصْبَحْتُ . . . .

(١٦٤) الفرزدق، الديوان، مج ١، ص ٣٧٢.

(١٦٥) ابن جني، الخصائص، مج ٢، ص ٤٢٢.

(١٦٦) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص ٢٥٦.

(١٦٧) عبيد بن الأبرص، ديوان عبيد بن الأبرص، (بيروت: دار بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص  
 ٢٣؛ وانظر: ابن جني، الخصائص، مج ٢، ص ٤١٩.

قال ابن جنّي: «وإنما القطبية ماء واحد معروف». (١٦٨)

وقال الشاعر:

أَلَا فَارْحَمُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ      فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهُ أَهْلٌ (١٦٩)

فقد أسند إلى الفعل (أرحم) واو الجماعة مع أنه يخاطب الله سبحانه وتعالى وهو واحد وذلك للتعظيم، ومثله قول الشاعر:

فَأَنْتَ الْبَنَاءُ إِذْ فِيكَ الَّذِي قَدْ      حَوَاهُ النَّاسُ مِنْ وَصْفٍ جَمِيلٍ (١٧٠)

وقال امرؤ القيس: (١٧١)

يَزَلُ الْغُلَامُ الْخِفُّ عَنْ صَهَوَاتِهِ      وَيَلْوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ  
قال الزوزني: «وإنما عبر بصهواته ولا يكون له إلا صهوة واحدة؛ لأنه لا لبس فيه فجرى الجمع والتوحيد مجرى واحداً عند الاتساع لأن إضافتها إلى ضمير الواحد يزيل اللبس». (١٧٢)

ونخلص في النهاية إلى أن في الإتيان بالمفرد وإرادة الجمع أو العكس مرونة واتساعاً وتنوعاً في التعبير واهتماماً بالمعنى.

(١٦٨) ابن جنّي، الخصائص، مج ٢، ص ٤١٩.

(١٦٩) الزمخشري، الكشاف، مج ٣، ص ٢٠٢؛ وانظر: عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن، ق ٣،

مج ١، ص ٧٣.

(١٧٠) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن، ق ٣، مج ١، ص ٧٣.

(١٧١) الزوزني، شرح المعلقة السبع، ص ٣٢؛ وانظر: ديوان امرئ القيس، ص ٢٠ رواية الديوان

(يَطِيرُ) بدلاً من (يَزَلُ).

(١٧٢) الزوزني، شرح المعلقة السبع، ص ٣٢.

## ثالثاً: التبادل بين المثني والجمع

## ١ - وضع المثني موضع الجمع

أشار ابن يعيش إلى أن القياس يعارض التعبير بالمثني عن الجمع «وذلك أن الغرض من الجمع الدلالة على الكثرة، والتثنية تدل على القلة، فهما معنيان متدافعان، ولا يجوز اجتماعهما في كلمة واحدة.» (١٧٣) وابن يعيش وإن كان عارضاً هذا، إلا أنه أشار إلى أنه يمكن تثنية الجمع على تأويل الجماعتين والفرقتين حين قال: «وقد جاء شيء من ذلك عنهم على تأويل الأفراد قالوا: إبلان وغنمان وجمالان، ذهبوا بذلك إلى القطيع الواحد وضموا إليه مثله فثنوه.» (١٧٤)

وهذا يتفق مع ما جاء في الكتاب. انظر إلى سيبويه حين قال: «وقالوا إبلان، لأنه اسم لم يكسر عليه وإنما يريدون قطيعين؛ وذلك يعنون، وقالوا: لقاحان سوداوان جعلوهما بمنزلة ذا، وإنما تسمع ذا الضرب ثم تأتي بالعلة والنظائر، وذلك لأنهم يقولون: لقاح واحدة كقولك قطعة واحدة وهو في إبل أقوى، لأنه لم يكسر عليه شيء.» (١٧٥)

وقد ورد مثل ذلك في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقْنَهُمَا﴾. (١٧٦) قال الزمخشري: «وإنما قيل: كانتا دون كن، لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض، ونحو قولهم: لقاحان سوداوان، أي جماعتان.» (١٧٧) وقال الأخفش: (١٧٨) «قال: ﴿كَانَتَا﴾ لأنه جعلها صنفين كنحو قول العرب: هما لقاحان أسودان، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾. (١٧٩)

(١٧٣) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ١٥٣.

(١٧٤) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ١٥٣.

(١٧٥) سيبويه، الكتاب، مج ٣، ص ٦٢٣.

(١٧٦) سورة الأنبياء، آية رقم ٣٠.

(١٧٧) الزمخشري، الكشاف، مج ٣، ص ١١٣.

(١٧٨) الأخفش، معاني القرآن، مج ٢، ص ٤١٠.

(١٧٩) سورة فاطر، آية رقم ٤١.

وقد عُدَّ من التعبير عن الجمع بالمثنى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١٨٠) فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئًا حسيراً برجعه كرتين اثنتين؟، قلت: معنى التثنية التكرير بكثرة كقولك لبيك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض. (١٨١) قال ابن عقيل: «... ثم ارجع البصر كرتين، أي كرات، (فكرتين): ليس المراد به مرتين فقط، لقوله تعالى ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١٨٢) أي مزدجراً وهو كليل ولا ينقلب البصر مزدجراً كليلاً من كرتين فقط، فتعين أن يكون المراد بكرتين: التكرير لا اثنين فقط.» (١٨٣)

ومن التعبير بالمثنى عن الجمع قول الرسول ﷺ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ.» (١٨٤) فقد ثنى كلمة «الغنم» وهي جمع. انظر إلى ابن يعيش كيف وضَّح ذلك حين قال: «إنه شبه المنافق وهو الذي يظهر أنه من قوم وليس منهم بالشاة العائرة وهي المترددة بين الغنمين أي بين القطيعين لا تعلم من أي القطيعين هي؟» (١٨٥)

ومن ذلك قول الشاعر:

هُمَا إِبْلَانٍ فِيهِمَا مَا عَلِمْتُمْ      فَعَنْ أَيِّهَا مَا شِئْتُمْ فَتَنَكَّبُوا (١٨٦)

- (١٨٠) سورة الملك، آية رقم ٤.  
(١٨١) الزمخشري، الكشاف، مج ٤، ط ١ (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ١٣٥.  
(١٨٢) سورة الملك، آية رقم ٤.  
(١٨٣) بهاء الدين عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على الألفية، مج ٣، ط ١٥ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م)، ص ٥٤.  
(١٨٤) أبو الحسن مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، مج ٨، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (بيروت: دار الفكر، د.ت)، مج ٨، ص ١٢٥، حديث ١٦.  
(١٨٥) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ١٥٥.  
(١٨٦) عبد الملك بن قريب الأصمعي، الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص ١٦٧؛ وانظر: ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ١٥٤؛ والبغدادى، الخزانة، مج ٧، ص ٥٦٤ - ٥٦٥. وقد =

«والشاهد في البيت قوله: (إِبْلَانٍ) حيث ثنى اسم الجمع على تأويل فرقتين وجماعتين .» (١٨٧)

وقال عمرو بن العداء الكلبي: (١٨٨)

لَأُضْبِحَ الْحَيَّ أَوْ بَادًا وَلَمْ يَجِدُوا      عِنْدَ التَّفَرُّقِ فِي الْهَيْجَا جَمَالَيْنِ  
وثنى الجمال لأنه جعلها صنفين، قال ابن يعيش: فالتثنية تدلُّ على افتراقها قطيعين، ولو  
قال: لقاح أو جمال لفهم منه الكثرة إلا أنه لا يدلُّ على أنها مفترقة قطيعين .» (١٨٩)

وقال الفرزدق: (١٩٠)

وَمَا قُمْتُ حَتَّى كَادَ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا      لِيَلْبَسَ مُسَوْدَى ثِيَابِ الْأَعَاجِمِ  
يريد: مسودات ثياب الأعاجم . (١٩١)

وقال الآخر:

كَانَ حُمُوهُمْ لَمَّا التَّقَيْنَا      ثَلَاثَةَ أَكْلِبٍ يَتَطَارِدَانِ (١٩٢)  
يريد: يتطاردن .

نسب الأصمعي البيت إلى عوف بن عطية بن الخريج التميمي ورواه هكذا:

هُمَا إِبْلَانٍ فِيهِمَا مَا عَلِمْتُمْ      فَأَدَوْهُمَا إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تُسَالِمَا

(١٨٧) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، هامش ص ١٥٤ .

(١٨٨) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ١٥٣؛ البغدادي، الخزانة، مج ٧، ص ٥٨٠ .

(١٨٩) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(١٩٠) الفرزدق، ديوان الفرزدق، مج ٢، ص ٣٠١؛ وانظر: ضرائر الشعر لابن عصفور، ص ٢٥٥،

والرواية المذكورة رواية ابن عصفور، أما رواية الديوان فهكذا:

فَمَا قُمْتُ حَتَّى هَمَّ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا      لِيَلْبَسَ مُسَوْدًا ثِيَابِ الْأَعَاجِمِ

وعلى رواية الديوان لا شاهد فيه .

(١٩١) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص ٢٥٥ .

(١٩٢) ابن عصفور، ضرائر الشعر، وفي البغدادي، الخزانة، مج ٧، ص ٣٩ ذكرت الكلمة الأخيرة في

البيت هكذا: (مُتَطَارِدَانِ) لا كما ذكرت (يَتَطَارِدَانِ) .

وقال الفرزدق: (١٩٣)

رَأَوْا جَبَلًا فَوْقَ الْجِبَالِ إِذَا التَّقَتْ رُءُوسُ كَبِيرِهِنَّ يَنْتَطِحَانِ

«فقال «رءوس» ثم قال: ينتطحان وذا نحو قول العرب: الْجُزُرَاتُ وَالطَّرَقَاتُ فَيَجُوزُ فِي ذَا أَنْ تَقُولَ (طَرَقَانَ) لِلثَّنِينِ وَجُزُرَانَ لِلثَّنِينِ. «(١٩٤)

وقد جعل النحاة (حَنَانِيكَ) وأخواته من التعبير بالمثنى عن الجمع، قال السيرافي: «اعلم أن التثنية في هذا الباب الغرض منها التكرير، وأنه شيء يعود مرة بعد أخرى، ولا يراد بها اثنان فقط من المعنى الذي يذكر، والدليل على ذلك أنك تقول: (ادخلوا الأول فالأول)، فإنما غرضك أن يدخل كل، وجئت بالأول فالأول، حتى تعلم أنه شيء بعد شيء... وهذا المثنى كله غير متصرف أي أنه لا يكون إلا مصدرًا أو اسمًا في موضع الحال، وإنما لم يتمكّن لأنه دخله بالتثنية لفظاً معنى التكرير. «(١٩٥)

## ٢ - وضع الجمع موضع المثنى

ورد استعمال الجمع وإرادة المثنى كثيراً في كلام العرب، نجدهم يقولون عند ذكر الْحَسَنِينَ — مثلاً — كَرَّمَ اللَّهُ وُجُوهَهُمَا، (١٩٦) ويقولون: رَجُلٌ عَظِيمُ الْمَنَاقِبِ، وَلَا يَكُونُ لَهُ إِلَّا مَنَكِبَانِ. (١٩٧)

جاء في لسان العرب (مادة نَكَبَ): ورجل شديد المناكب، قال اللحياني: هو من الواحد الذي يفرّق فيجعل جميعاً، قال: والعرب تفعل هذا كثيراً، (١٩٨) ومن ذلك قولهم:

(١٩٣) الفرزدق، الديوان، مج ٢، ص ٣٣٢، وفي الديوان (دَقَّ) بدلاً عن كلمة (فَوْقَ)؛ وانظر:

الأخفش، معاني القرآن، مج ٢، ص ٤١٠.

(١٩٤) الأخفش، معاني القرآن، مج ٢، ص ٤١٠.

(١٩٥) سيبويه، الكتاب، مج ١، هامش ص ٣٥٢.

(١٩٦) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٣٣٨.

(١٩٧) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ٣٣.

(١٩٨) ابن منظور، اللسان، مادة (نكب).

امْرَأَةٌ ذَاتُ أُوْرَاكِ وَمَاكِمْ . (١٩٩)

وقد عقد سيبويه لذلك باباً سماه: «هذا باب ما لفظ به مما هو مثنى، كما لفظ بالجمع قال فيه: (٢٠٠) «وهو أن يكون الشيطان كل واحد منهما بعض شيء مفرد من صاحبه، وذلك قولك: مَا أَحْسَنَ رَأْيُوسَهُمَا وَأَحْسَنَ عَوَالِيَهُمَا، وقال عز وجل: ﴿إِن نُّوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ . (٢٠١) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (٢٠٢) فرقوا بين المثنى الذي هو كل شيء على حدة، وبين ذا وقال الخليل: نظيره قولك: فَعَلْنَا وَأَنْتُمْ ائْتَانِ، فتكلّم به كما تكلّم به وأنتم ثلاثة. وقد قالت العرب في الشئيين اللذين كل واحد منهما اسم على حدة وليس واحد منهما بعض شيء كما قالوا في ذا، لأنّ التثنية جمع، فقالوا كما قالوا: فَعَلْنَا، وزعم يونس أنهم يقولون: ضَعُّ رِحَالَهُمَا وَغِلْمَانَهُمَا وَإِنَّمَا هُمَا ائْتَانِ . . .» (٢٠٣)

وقد سمى ابن الشجري التثنية التي وردت بصورة الجمع تثنية معنوية، وبين أنها «تثنية آحاد ما في الجسد كالأنف والوجه والبطن والظهر، تقول: ضربت رءوس الرجلين وشققت بطون الجملين ورأيت ظهوركما وحيّ الله وجوهكما فتجمع وأنت تريد رأسين وبطنين وظهرين ووجهين . . .» (٢٠٤)

وقد ورد التعبير بالجمع عن المثنى كثيراً في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ (٢٠٥) يريد فإن كان له أخوان. انظر إلى الأخص بين ذلك بقوله: «فيذكرون أنّ الأخوة ائنان، ومثله: إِنَّا فَعَلْنَا، وَأَنْتُمْ ائْتَانِ - وقد يشبه ما كان من شئيين وليس مثله، ولكن

(١٩٩) السيوطي، الزهر، مج ١، ص ٣٣٣.

(٢٠٠) سيبويه، الكتاب، مج ٣، ص ٦٢١.

(٢٠١) سورة التحريم، آية رقم ٤.

(٢٠٢) سورة المائدة، آية رقم ٣٨.

(٢٠٣) سيبويه، الكتاب، مج ٣، ص ٦٢١ - ٦٢٢.

(٢٠٤) ابن الشجري، الأمالي الشجرية، مج ١، ص ١١ - ١٢.

(٢٠٥) سورة النساء، آية رقم ١١.

اثنين قَدْ جُعِلَ جماعة .» (٢٠٦)

وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (٢٠٧) ولم يقل يديهما، وقد وضح الفراء ذلك بقوله: «وإنما قال (أيديهما)؛ لأن كل شيء موحد من خلق الإنسان إذا ذكر مضافاً إلى اثنين فصاعداً جمع. ف قيل: قد هشمت رءوسهما وملأت ظهورهما وبطونهما ضرباً.» (٢٠٨) وبين الزمخشري أن المراد بقوله أيديهما: يديهما وشبهه بقوله تعالى ﴿فَقَدَّصَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حيث قال «اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف...» (٢٠٩) وقال ابن يعيش: «فإنما جمع؛ لأن المراد الأيمان، وقد جاء في قراءة عبدالله بن مسعود: «فاقطعوا أيماهما.» (٢١٠) وقال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (٢١١) وقوله عز وجل أيضاً ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ (٢١٢) قال الفراء في تفسير هاتين الآيتين: «وقوله ﴿اخْتَصَمُوا﴾ ولم يقل اختصما؛ لأنها جمعان ليسا برجلين، ولو قيل: اختصما كان صواباً ومثله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ (٢١٣) يذهب إلى الجمع، ولو قيل: اقتتلنا لجاز، ويذهب إلى الطائفتين، (٢١٤) وقال تعالى: ﴿إِن نُّؤَبَّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدَّصَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (٢١٥) فجعله — كما أشار الأخفش — جماعة، لأنها اثنان من اثنين. (٢١٦) وقال تعالى أيضاً ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبِيُّ الْأَخْصَمِ إِذْ سُورُوا بِالْحَرَابِ﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا

(٢٠٦) الأخفش، معاني القرآن، مج ١، ص ٢٢٩.

(٢٠٧) سورة المائدة، آية رقم ٣٨.

(٢٠٨) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٣٠٦.

(٢٠٩) الزمخشري، الكشاف، مج ١، ص ص ٦٣١ - ٦٣٢.

(٢١٠) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ١٥٦.

(٢١١) سورة الحج، آية رقم ١٩.

(٢١٢) سورة الحجرات، آية رقم ٩.

(٢١٣) سورة الحجرات، آية رقم ٩.

(٢١٤) الفراء، معاني القرآن، مج ٢، ص ٢٢٠.

(٢١٥) سورة التحريم، آية رقم ٤.

(٢١٦) الأخفش، معاني القرآن، مج ٢، ص ٥٠٣.

عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴿٢١٧﴾. ويبدولي أن في هذه الآية تبادلاً بين المثني والجمع فقد أسند إلى الأفعال (تسور، ودخل، وقال) واو الجماعة مع أن الملكين اثنان، فقد جاء في هامش البحر المحيط «أن الله بعث إليه — أي داود — ملكين في صورة إنسانين، وطلبنا أن يدخلنا عليه فوجدناه في يوم عبادته فمنعهما الحراس فتسوروا عليه المحراب فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان.» (٢١٨)

وقال تعالى أيضاً: ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِإِيتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴿٢١٩﴾. قال أبو حيان: «ومعكم قيل من وضع الجمع موضع المثني أي معكما وقيل هو على ظاهره من الجمع والمراد موسى وهارون ومن أرسلنا إليه، وكان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يرجح أن يكون أريد بصورة الجمع المثني والخطاب لموسى وهارون فقط، قال لأن لفظه (مع) تباين من يكون كافراً بأنه لا يقال الله معه، وعلى أنه أريد بالجمع التثنية حمله سيويبه رحمه الله وكأنهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع إذ كان ذلك جائزاً أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته.» (٢٢٠)

وقال تعالى أيضاً ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا ﴿٢٢١﴾، «جمع الضمير في ﴿يَأْتُوا﴾، وما بعده وإن كان السابق مثني، فقيل هو عائد على الشاهدين باعتبار الصنف والنوع، وقيل: لا يعود عليهما بخصوصهما بل على الناس الشهود، والتقدير: ذلك أدنى أن يحذر الناس الخيانة فيشهدوا بالحق.» (٢٢٢)

(٢١٧) سورة ص، الآيتان رقم ٢١ - ٢٢.

(٢١٨) أبوحيان، البحر المحيط، مج ٨، هامش ص ٣٨٨.

(٢١٩) سورة الشعراء، الآيتان رقم ١٥، ١٦.

(٢٢٠) أبو حيان، البحر المحيط، مج ٧، ص ٨.

(٢٢١) سورة المائدة، آية رقم ١٠٨.

(٢٢٢) أبوحيان، البحر المحيط، م ٤، ص ٤٧؛ وانظر: عزيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم،

ق ٣، مج ١، ص ٦٨ - ٦٩.

وقال تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾، (٢٢٣) جمع الضمير في كلمة ﴿حكّمهم﴾ على الرغم من أن المتقدم اثنان فربما وقع الجمع موقع التثنية مجازاً، أو لأن التثنية جمع، وأقل الجمع اثنان.

وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾، (٢٢٤) «أعاد الضمير جمعا، لأن كل طائفة منهم جمع.» (٢٢٥)

وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾، (٢٢٦) قال الزمخشري: «لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلي البشر والسببين اللذين منها نشأوا وتفرّعوا جُعلا كأنهما البشر في أنفسهما، فخطوبا مخاطبتهم، فقيل: ﴿فإمّا يأتينكم﴾ على لفظ الجماعة»، (٢٢٧) وقال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَصِرَتُ الْأَطْرَفُ . . . ﴾، (٢٢٨) فقال ﴿فيهن﴾ على الرغم من أنهما جنتان، والذي دلّ على ذلك تقدّم الجنتين اللتين ذكرهما الله بقوله: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾. (٢٢٩)

وقال تعالى: ﴿ إِنْ نُثُوبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا . . . ﴾. (٢٣٠) قال ابن يعيش: «إنما عبروا بالجمع والمراد التثنية من حيث إن التثنية جمع في الحقيقة، ولأنه مما لا يلبس ولا يشكل، لأنه قد علم أن الواحد لا يكون له إلا رأس واحد أو قلب واحد فأرادوا الفصل

(٢٢٣) سورة الأنبياء، آية رقم ٧٨.

(٢٢٤) سورة الأنعام، آية رقم ١٥٦.

(٢٢٥) أبو حيان، البحر المحيط، مج ٤، ص ٢٥٧؛ وانظر: دراسات لأسلوب القرآن لعزيمة، ق ٣، مج ١، ص ٦٩.

(٢٢٦) سورة طه، آية رقم ١٢٣.

(٢٢٧) الزمخشري، الكشاف، مج ٣، ص ٢٩٣. وانظر: عزيمة، دراسات لأسلوب القرآن، ق ٣، مج ١، ص ٦٩.

(٢٢٨) سورة الرحمن، آية رقم ٥٦.

(٢٢٩) سورة الرحمن، آية رقم ٥٠.

(٢٣٠) سورة التحريم، آية رقم ٤.

بين النوعين فشبهوا هذا النوع بقولهم: نَحْنُ فَعَلْنَا، وَإِنْ كَانَا اثْنَيْنِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُمَا بِلَفْظِ الْجَمْعِ، وَكَانَ الْفَرَاءُ يَقُولُ: إِنَّهَا خَصَّ هَذَا النَّوْعَ بِالْجَمْعِ نَظْرًا إِلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْجَسَدِ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ شَيْئَيْنِ، فَإِذَا ضَمَّ إِلَى ذَلِكَ مِثْلَهُ فَقَدْ صَارَ فِي الْحُكْمِ أَرْبَعَةً وَالْأَرْبَعَةَ جَمْعٌ، وَهَذَا مِنْ أَصُولِ الْكُوفِيِّينَ الْحَسَنَةِ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ مَا فِي الْجَسَدِ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ فِيهِ الدِّيَّةُ كَامِلَةٌ كَاللِّسَانِ وَالرَّأْسِ، وَأَمَّا مَا فِيهِ شَيْئَانِ فَإِنَّ فِيهِ نِصْفَ الدِّيَّةِ. «(٢٣١)

وَعُدَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ النَّبِيِّ: (٢٣٢)

سُودٌ سَوَالِفُهُ لُعْسٌ مَشَارِقُهُ نَعْسٌ نَوَاطِرُهُ خُرْسٌ أَسَاوِرُهُ

وقول الأسود بن يعفر: (٢٣٣)

أَتَانِي مِنَ الْأَنْبَاءِ أَنَّ مَجَاشِعًا وَآلَ فَقِيمٍ وَالْكَرَادِيسَ أَصْفَقُوا

يعني بالكراديس: معاوية وقيسًا ابني مالك على الرغم من أنها اثنان وكان يقال لهما: الكرديوسان.

وهكذا فإن هذه الشواهد تثبت مجيء المثني في موضع الجمع أو العكس، وهذا يدل على مرونة اللغة واتساعها، واهتمامها بالمعنى.

### الخاتمة

(١) يتضح مما سبق اتساع كثرة الاستعمال من كلام العرب شعراً ونثراً ومن القرآن الكريم بدليل التبادل بين المفرد والمثنى من جهة وبين المفرد والجمع من جهة ثانية، وبين المثنى والجمع من جهة ثالثة.

(٢٣١) ابن يعيش، شرح المفصل، مج ٤، ص ١٥٥.

(٢٣٢) كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النبيه، ديوان ابن النبيه المصري، تحقيق عمر محمد

الأسعد، ط ١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٦٩م)، ص ٩٢.

(٢٣٣) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص ٢٥٧.

وكما رأينا فإن هذا الاستعمال يتوقف على وضوح المعنى واستقامته ، وذلك بأن يتقدم شيء يدل على المعنى ، أو قل إن قرائن الأحوال والملابسات تشير إلى المعنى المقصود أو أن خروج هذا الاستعمال على مقتضى الظاهر لا يؤدي إلى التباس .

انظر إلى ابن يعيش كيف وضَّح البيت: «كأنه وجه تركيبن قد غضبا . . . الخ» بقوله: «وذلك لوضوح المعنى ، إذ كل واحد له شيء واحد من هذا النوع فلا يشكل ، فأتى بلفظ الإفراد إذ كان أخف . . .» (٢٣٤)

(٢) وبتبعنا للنصوص الكثيرة التي أوردناها للتدليل على ظاهرة التبادل بين المفرد والمثنى والجمع ، اتضح لنا أن هناك معاني وعللاً وأغراضاً وراء استعمال هذه الظاهرة ، وهذا ما نحاول أن نفصله فيما يلي .

(٣) فالتعبير بالمفرد عن المثنى يحدث :

( أ ) إما لكون الشئين صاراً لا يغني أحدهما عن الآخر أو أنها نزلاً منزلة شيء واحد ، أو أن المقصود بهما منفعة واحدة .

( ب ) أو يجعل الضمير للواحد مع أن المتقدم مثنى ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ .

( ج ) أو يكون القصد الخفة والاختصار .

( د ) أو يكون القصد التعظيم وذلك بأن يتقدم ذكر اثنين ثم يرجع الضمير لأحدهما ، لأن الآخر ذكر فقط للتعظيم كلفظ الجلالة في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ . . .﴾ (٢٣٥)

قال الفراء: « . . . إن شئت جعلته من ذلك : مما اكتفى ببعضه عن بعض ، وإن

(٢٣٤) ابن يعيش ، شرح المفصل ، مج ٤ ، ص ١٥٧ ؛ انظر: أمالي ابن السجري ، مج ١ ، ص ١٢ .

(٢٣٥) سورة التوبة ، آية رقم ٦٢ .

شئت جعلت الله تبارك وتعالى في هذا الموضع ذكر لتعظيمه والمعنى للرَسُول ﷺ . « (٢٣٦) »

(٤) أما التعبير بالثنى عن المفرد فإن الغرض منه ينحصر في الآتي:

- (أ) أن العرب من عاداتهم إجراء خطاب الواحد مجرى خطاب الاثنين: قال الفراء: «ونرى ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرفقة أدنى ما يكونون ثلاثة فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى الشعراء أكثر شيء قبيلاً: يا صاحبي، يا خليلي...» (٢٣٧)
- (ب) إرادة التأكيد بتقسيم الشيء إلى شيئين، قال أحد الباحثين: «ووجه إرادة التأكيد بتقسيم الشيء إلى شيئين وتسمية كل منهما باسمه والإشعار بإرادة تكرير الفعل، وأن الفعلين امتزجا وصار حضور أحدهما حضوراً للآخر.» (٢٣٨)

(٥) إن التعبير بالمفرد عن الجمع لا يخرج عن الآتي:

- (أ) قد يكون الغرض منه الاختصار.
- (ب) وقد يكون لأن الجمع اسم جنس ينوب مفردة عنه.
- (ج) وقد يكون الغرض منه التعظيم.
- (د) أو يكون الغرض منه بيان الجنس.
- (هـ) أو يكون لأن الكلمة المفردة أخرجت مخرج التمييز، قال المبرد: «وأما قول الله عز وجل ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ ، وقوله ﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾ فإنه أفرد هذا، لأن مخرجيهما مخرج التمييز.» (٢٣٩)

(٦) وأما وضع الجمع موضع المفرد، فبالإضافة إلى أن العرب قد توقع على الجزء اسم

(٢٣٦) الفراء، معاني القرآن، مج ١، ص ٤٣٤.

(٢٣٧) الفراء، معاني القرآن، مج ٣، ص ٧٨.

(٢٣٨) مطلوب، القزويني وشروح البلاغة، ص ٥٥٣.

(٢٣٩) المبرد، المقتضب، مج ٢، ص ١٧٣.

الكلّ، فإنّ الغرض الأساسي منه هو التعظيم.

قال أحد الباحثين: «وصيغة الجمع قد تشعر بمعاني التعظيم والإجلال، حينما يوضع ما للجماعة للواحد، وقد أشار النحاة إلى هذا المعنى في الضمائر، وقالوا: إنّ ضمير جمع المتكلمين المتصل والمنفصل قد يأتي للمعظم نفسه.»<sup>(٢٤٠)</sup> وهذا ما أشار إليه صاحب البحر المحيط في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾،<sup>(٢٤١)</sup> وذلك حين قال: قِيلَ إبراهيم وحده، وقيل آدم وحده، والعرب تخاطب الرجل العظيم الذي له أتباع مخاطبة الجمع.»<sup>(٢٤٢)</sup>

(٧) وأما التعبير بالمثنى عن الجمع فإنه يأتي على تأويل الجماعتين والفرقتين، وقد جعل النحاة من ذلك باب حنانيك وأخواته وهو يفيد التكثير.

(٨) أما وضع الجمع موضع المثنى فإنه يكون للآتي:

- (أ) للتقارب بين التثنية والجمع، قال ابن السجري: «وإنما استحسنوا ذلك لما بين التثنية والجمع من التقارب من حيث كانت التثنية عددًا تركب من ضمّ واحد إلى واحد وأول الجمع وهو الثلاثة تركب من ضمّ واحد إلى اثنين.»<sup>(٢٤٣)</sup> «وذلك لأنّ التثنية جمع»<sup>(٢٤٤)</sup> كما قال سيبويه.
- (ب) لأنّ الجمع أسهل من التثنية. قال ابن السجري: «فجمعوا الأوّل كراهة أن يؤتوا بتثنتين متلاصقتين في مضاف ومضاف إليه، والمتضايقان يجريان مجرى الاسم الواحد، فلمّا كرهوا أن يقولوا «مَا أَحْسَنَ وَجْهَي الرَّجُلَيْنِ»

(٢٤٠) محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، ص

٢٢٧.

(٢٤١) سورة البقرة، آية رقم ١٩٩.

(٢٤٢) أبو حيان، البحر المحيط، مج ٢، ص ١٠٠.

(٢٤٣) ابن السجري، الأمل السجري، مج ١، ص ١٣.

(٢٤٤) سيبويه، الكتاب، مج ٣، ص ٦٢٢.

فيكونوا كأنهم قد جمعوا في اسم واحد بين تثنيتين غيروا لفظ التثنية الأولى  
 بلفظ الجمع إذ العلم محيط بأنه لا يكون للثنتين أكثر من وجهين، فلما  
 أمنوا اللبس في وضع الوجوه موضع الوجهين استعملوا أسهل  
 اللفظين . «(٢٤٥)

وخلاصة القول فإن ظاهرة التبادل بين المفرد والمثنى والجمع تُثبت بوضوح مدى ما  
 تتمتع به قواعد اللغة العربية من مرونة واتساع ومن تنوع في التعبير عن المقصود واهتمام  
 بالمعنى واستقامته .

## **Alternation between the Singular, Dual and Plural in the Arabic Language**

**Duffalla Abdalla Suleiman**

*Associate Professor, Department of Arabic, College of Arts, King Saud University,  
Riyadh, Saudi Arabia*

**Abstract.** Languages other than Arabic usually distinguish between the singular, dual and plural forms. While the Arabic language shows exchange or equivalence between the three forms expressing a singular, a dual and a plural. Examples from the Arabic language illustrate this phenomenon. This research deals with the reasons and causes that have their effect on this phenomenon. The research concludes that this phenomenon proves the elasticity, variety and richness in expression of the Arabic language, and this exchange between the three forms is only used when the importance and precision of the meaning calls for it.